توطئة

أسبوع لا ينسى
من شهر أيلول

في أواسط شهر أيلول (سبتمبر) من كل سنة يجتمع رؤساء الدول وعدد من وزراء الخارجية في مدينة نيويورك بمناسبة الجمع العام السنوي الذي تعقده منظمة الأمم المتحدة. يمكن القول عموما إن الخطابات ليست هي ما يستهوي هؤلاء للحضور؛ فما يحملهم على تجشم وعثاء السفر هو البحث عن فرصة يروا الآخرين ويرونهم فيها، والرغبة في تبادل الآراء والأفكار والحديث عن الأعمال بل وحتى النميمة. فهذا اللقاء هو المكان الأمثل بالنسبة للدبلوماسيين لحشد الدعم لمخططات بلدانهم وقضاء حاجاتها.

ذلك ما كان **ريتشارد هولبروك** ينوي القيام به في أيلول 2009. فقبل سبعة أشهر كان الرئيس **أوباما** قد عينه ممثلا ومبعوثا خاصا له في أفغانستان وباكستان. فخلال حملته الانتخابية وحتى عند توليه الرئاسة، كرر الرئيس بوضوح أنه يضع إعادة الأوضاع إلى نصابها في أفغانستان ضمن أولويات رئاسته. كنت أعلم حق العلم مدى الأهمية والجدية التي كان **هولبروك** يوليها للمهمة التي أنيطت به. فقد قال لي عندما ضمني لفريق كبار مستشاريه إنه عازم على إنهاء الحروب التي تشنها الولايات المتحدة على العالم الإسلامي. فإذا لم نقم بالأمور على وجهها الصحيح أو أخطأنا في القيام بها فإن "الحرب المستمرة" ستدوم إلى ما لا نهاية.

في أواخر صيف 2009، كان المخطط النهائي الموضوع لأفغانستان ـــــ أي مزيد من الفرق المحاربة وبناء الدولة هناك بشكل جدي ـــــ واضحا بما فيه الكفاية في ذهن **هولبروك** مما دفعه إلى إخبار حلفائنا المقربين بما نحن مقدمون عليه وإلى أين نسير. وقد قال لي إنه ينوي البدء بالاتصال بعدد من هؤلاء الحلفاء في نيويورك أثناء الجمع العام للأمم المتحدة قبل أن يطلب مني مرافقته في هذه المهمة. كان أسبوعا لن أنساه ما حييت.

كان أول لقاء لنا مع وزير خارجية مصر، **أحمد أبو الغيط**. وهو صديق لـ **هولبروك** تربطهما علاقة قديمة، لذا كان منتظرا أن يكون أكثر لطفا وتأدبا من غيره في لقائه معه وتحيته. افتتح **هولبروك** اللقاء بعرض عن مخططنا في أفغانستان: القضاء على التمرد وبناء الديمقراطية وتحقيق اقتصاد حيوي وجيش كثير العدد ومجتمع مدني قوي. تحدث **هولبروك** بحماسة بينما كان أبو الغيط يومئ بطريقة مؤدبة خلال العرض. لكن بمجرد ما تُتاح فرصةٌ يتوقف فيها **هولبروك** عن الكلام، وأحيانا قبل أن ينهي فكرة ما، كان **أبو الغيط** يقحم ملاحظات بطريقة فجة وأسلوب أقرب إلى الفظاظة؛ ملاحظات مفادها أن ما جاء به **هولبروك** هو أقرب ما يكون لمخططاتنا في العراق التي لم يُحقق أي منها المرتجى. عندما أنهى **هولبروك** عرضه بدأ **أبو الغيط** في إلقاء عرضه.

افتتح **أبو الغيط** عرضه مخاطبا **هولبروك** باسمه الأول "**ريتشارد** من البديهي أن نساندكم كما هو دأبنا على ذلك دوما. لكن لماذا تريد الزج بنا في حرب أخرى؟ فهذا أمر سيساعد الإرهابيين فقط. فالحديث الجاري على لسان شبابنا اليوم يدور حول الذهاب إلى أفغانستان والجهاد ضد الأمريكيين."

لم يكن **أبو الغيط** خاطئا في كل ما قال؛ فالكثير من شباب مصر كانوا يحلمون بالديموقراطية. غير أن ربطَ الصلة بين الهجمات الأمريكية واستعداد الشباب العرب (والباكستانيين أيضا) لمحاربة أمريكا كان تقديرا صائبا تماما. لم تكن الكلمات التي استعملها أبو الغيط هي التي وصلت إلينا واضحة وقوية فقط، بل ما وصلنا أيضا هو صرف نظره عن الأمر والتعبير عن إحباطه جراء وضعه مرة أخرى أمام مخطط لا يعني له أي شيء ويقدم إليه على أنه أمر واقع ثم يطلب منه الدعم.

ازدادت ردود الأفعال سوءا في اللقاءات التالية. ففي اللقاء الثاني الذي جمعنا بوزير خارجية عربي آخر، كنا نحتسي الشاي ونتذوق التمر أثناء عرض **هولبروك** للنقاط الرئيسية للمخطط. وقد جاء عرضه هذه المرة أكثر طولا وتفصيلا سَلَّطَ فيه الضوء على ما تريد أمريكا تحقيقه في أفغانستان. وعموما كان **هولبروك** في هذا اللقاء يتوقع ما ستكون عليه ردة الفعل، فقد كان جنديا وفيا لمهمته كما هو حاله دائما. ومهمته يومئذ هي تسويق مخططنا. وهو ما حاول القيام به فعلا.

مرة أخرى عبر الدبلوماسيون على الطرف الآخر من الطاولة بمرارة عما يخالجهم بعد سماع حديثنا عن بناء الديموقراطية وخطابنا عن المجتمع المدني القوي وغير ذلك مما كنا نعرضه عليهم، قائلين إنكم بعيدون عن جادة الصواب في بلد منقطع الصلة بالواقع.

حين جاء دورهم في الحديث قال رئيسهم ما مفاده "من الأفضل لكم شراء (ذمم) أمراء الحرب لإبقاء القاعدة بعيدا عن أفغانستان" ثم مستطردا "أعتقد أن هذا سيكلفكم عشرين مليار دولار أي خمس المبلغ الذي تنفقونه سنويا في أفغانستان." "أنفقوا هذا المبلغ وعودوا إلى دياركم".

تطلب الأمر مني ترديد هذه العبارة الأخيرة مرارا وتكرار: "عودوا إلى دياركم" حتى أدرك المعنى المراد. ذلك أن هذا الصنف من التوبيخ العنيف أسكت الجميع. فكما لو أن وزير الخارجية كان يريد بقوله هذا إحراجنا والحط من قيمتنا؛ كما يمكن أن يستشف من الطريقة التي كان يتحدث بها أنه يعتقد اعتقادا جازما أننا لا نفقه شيئا وأنه يسدي لنا خدمة أو يتصدق علينا بحسنة. ومرة أخرى لم تكن تلك الإجابة التي كنا نتطلع إليها، لكنها كانت إجابة يتوجب الاستماع إليها والأخذ بها. فبعد مرور زهاء سنة على هذا الحدث كتب **راجيف شانداراسيكران**[1] المحرر في جريدة واشنطن بوسط تقريرا يقول فيه إن الكثير من المناطق من أفغانستان التي شهدت أحداثا عنيفة في الفترة الأخيرة يرجع فضل الانتصار فيها إلى أمراء الحرب الذين تساندهم أمريكا.[2]

---

[1] Rajiv Chandrasekaran صحفي أمريكي أصله من الهند تولى مهام صحفية في عدد من دول شق آسيا خاصة أفغانستان ويرأس تحرير جريدة واشنطن بوسط (المترجم).

[2]

كنت أسأل **هولبروك** بين اجتماع وآخر عن ردود الأفعال والإجابات التي تلقيناها. ويمكنني القول مما لاحظت إن **هولبروك** كان منزعجا أشد الانزعاج من إنكار محدثينا لقدرات أمريكا على فعل شيء جيد في المنطقة. في البداية كان **هولبروك** مترددا في البحث عن إجابة مكتفيا بتعليقات سريعة. وأخيرا توصل إلى قناعة مفادها أن المشككين لم يفهموا الاستراتيجية التي نتبناها. فمشكلتنا كانت هي التواصل ـ كان علينا طرد الأرواح الشريرة من العراق قبل أن نبعث الثقة والأمل في أفغانستان. وأخيرا قال بعد استراحة واتضاح الرؤية لديه: "إنهم أصابوا في هذه النقطة".

كان اللقاء التالي في جدول اتصالاتنا مع وزير خارجية عربي آخر. يمكنني القول إنني لو أغمضت عيني أثناء هذا اللقاء لحكمت بأننا لم نغادر الاجتماع السالف. والواقع أنه لو كان هناك متسع من الوقت بين الاجتماعين لخلصت إلى أن الوزيرين (وزيري الخارجية) قارنا بين الملاحظات التي أعداها واتفقا على محتواها. حين كان **هولبروك** يعرض نفس نقاط عرضه ـــــ وأقر هنا أنه كان أقل جاذبية من الأول ـــــ كان مضيفنا يتململ ضيقا كما لو كان يستعجل **هولبروك** إنهاء خطابه ليعود بالنقاش إلى أرض الواقع. وعندما أنهى **هولبروك** سارع إلى الإجابة.

افتتح بالقول "يمكنكم أو تؤدوا ثمنا لإنهاء هذه الحرب." ثم انتقل في جلسته إلى حافة المقعد رافعا سبابته إلى الأعلى "مليار دولار" سيكلفكم الأمر مليار دولار دون أن تكون هناك حاجة إلى حرب أو قتال." حدد هذا المبلغ كما لو كان يعرض السعر الأخير في مساومة تجارية.

بعد ذلك استأنف القول كما لو كان يتحدث إلى شخص له معرفة قليلة وفهم ضعيف بدينامية المنطقة بأننا نخوض حربا خاطئة. "عليكم التحدث إلى طالبان عوض محاربتهم مما سيساعدكم في التعامل مع إيران." ثم ابتسم ابتسامة العارف بخبايا الأمور. وبما أن الحرب في العراق كانت تقلقنا وتقلق دول الخليج وتثير مخاوفهم حول تنامي تأثير إيران في المنطقة، وبما أننا كنا شديدي القلق حول التقدم الحثيث لإيران في برنامجها النووي، فإنه كان يرغب في أن تركز أمريكا على إيران ـ حتى وإن تطلب الأمر التعامل بلطف مع طالبان.

كان الملك **عبد الله** عاهل المملكة العربية السعودية متفقا تمام الاتفاق مع هذا الرأي. فقد قال لـ **هولبروك** في لقاء معه "عليكم النظر في أصل مشكل طالبان." أما ماذا كان الملك عبد الله يعتقد في شأن أصل مشاكلنا في أفغانستان، فمن البديهي أن إيران هي أصل كل المشاكل في اعتقاده.

كان **هولبروك** على صواب حين أشار إلى أن الأرواح الشريرة في العراق تستنزف مصداقيتنا في المنطقة. فما يشغل زعماء الشرق الأوسط ويثير انزعاجهم هو أننا لا ندرك الفرق بين الانتصار على خصم في أرض المعركة (وهو ما حققناه بسرعة فائقة) وبين كسر إرادة الخصم سيكولوجيا ومنعه من المقاومة. لقد كنا في حيرة وذهول ـــــ بل وغير مستعدين ـــــ إثر انتصارنا العسكري في العراق وما تلاه من غليان الصراع بين السنة والشيعة واندلاع العنف بين الطائفتين الذي كان متوقعا أن يدوم طويلا. وما كان حلفاؤنا يدركونه آنذاك ـــــ حتى وإن لم نكن نقر به مع أنفسنا ـــــ هو أن العراق بعد انصرام عشر سنوات على الحرب ما زال بلدا منكسرا ومجزأ إلى أكثر من عشر قطع تلحمها شرائط

Rajiv Chandrasekaran, Little America: The War within the War for Afghanistan (New York: Knopf, 2012), pp. 261-69.

لاصقة هشة. وقد بدأت تلك الشرائط تهترئ وتتلاشي حين غادرنا العراق. هل كان الأمر حقا مفاجئا بالنسبة إلينا حين لم يعد الناس يثقون بحكمة ما فعلناه في أفغانستان وبالوهم الذي زج بنا في العراق؟

عندما انقضى الأسبوع عدنا إلى واشنطن، قدم **هولبروك** تقريره عن رؤية حلفائها لمخططاتنا في الحرب؛ حيث قدمه باحترافية ومهنية أداء الواجب، وبأسلوب لا ينم عن أنه يحقق انتصارا شخصيا له. وفيما يخصه شخصيا فقد كان حذرا يعارض الرهان على الحرب. لكن جرى الاستغناء عن مهامه الاستشارية كما لو كان رجلا مدعيا ذا رؤية قديمة. وقد قال لي مرة في هذا الشأن "عندما كنت أتحدث في البيت الأبيض عن مكافحة التمرد وفيتنام، كان المسئولون يديرون أعينهم في محاجرها كما لو كنت شخصا قادما من كوكب آخر."

بعد انصرام ستة أسابيع، وبالضبط في فاتح كانون الأول (دجنبر) 2009، أي في الوقت الذي لم يعد فيه الحديث يدور مجددا حول التحفظات التي أبداها حلفاؤنا في المنطقة الذين كان تعاونهم ضروريا لتنفيذ مخططنا، أعلن الرئيس أوباما عن قراره في شأن الحرب في أفغانستان الذي طال انتظاره. فحسب التقارير، قضى الرئيس **أوباما** ساعات وساعات، بل أشهرا، يزن ويدرس كل المعلومات ذات الصلة بالموضوع قبل أن يقدم على اتخاذ القرار بإرسال 33.000 جندي من القوات الأمريكية لمواصلة الحرب في أفغانستان. حبس العالم أنفاسه من هذه الرؤية الجديدة والتي لم تكن سوى تكرار لنفس الحوافز المألوفة في اللجوء إلى الجنرالات لإصلاح المشاكل الخارجية الأمريكية. غير أن **أوباما** لم يكتف بذلك فحسب، فهو لم يقدم على خطوات تعيد للدبلوماسية مقام الصدارة في السياسة الخارجية. أما بالنسبة للشعب الأمريكي، فإن الرئيس أبان عن قراره بقوله للعالم إن أمريكا ستحارب وتستمر في الحرب إلى أن تحقق النصر. بيد أن أولئك الذين ارتأوا بأن على أمريكا أن تبذل كل ما في وسعها لإقناع الآخرين بحكمة ما تفعل، كانوا غير منبهرين بما يقوله الرئيس. كانوا يشكون في إمكانية نجاح الاستراتيجية التي اعتمدناها ويتوقعون فشلها في كل الأحوال. بل كانوا يرون أنه ليس بإمكاننا الصمود طويلا.

تعالت أصوات التشكيك ولم يتوقف قرع طبولها. فبعد مرور سنة تقريبا، في شهر أكتوبر 2010، زار القائد الأعلى للقوات الباكستانية، الجنرال **أشفق برويز كياني**، واشنطن، سلم خلالها مذكرة إلى الرئيس **أوباما** من ثلاثة عشر صفحة كان أعدها لشرح آرائه حول القضايا الاستراتيجية المهمة العالقة بين باكستان والولايات المتحدة. يمكن تلخيص هذه المذكرة التي تحمل الرقم 3 (حيث كانت ثالث مذكرة تقدمها باكستان للبيت الأبيض في نفس الموضوع) على النحو التالي: لن تنتصروا في هذه الحرب؛ ليس بإمكانكم تغيير أفغانستان. فهذا البلد أو هذا المكان التهم امبراطوريات قبلكم؛ وسيهزمكم أنتم أيضا كما فعل مع غيركم. توقفوا عن السير في مخططاتكم الضخمة وكونوا عمليين في تعاملكم مع الوضع؛ تمهلوا قليلا وناقشوا كيفية الخروج من المأزق وكيف يمكنكم ويمكننا التعايش مع الوضع النهائي.

عبر **كياني** مرارا وتكرارا عن شكوكه خلال الاجتماعات التالية. حاولنا إقناعه (على نحو ما قمنا به مع زعماء آخرين من المنطقة) بأننا ملتزمون بأمن المنطقة ونتوافر على حل لمشاكل أفغانستان: العمل أولا التغلب على طالبان والعمل ثانيا على بناء قوة أمن كافية تضبط المنطقة بعد رحيلنا. كان **كياني**، على غرار الكثير، يرى بأن فكرة تأسيس جيش أفغاني فكرة سخيفة، وأنه من الأفضل لنا مناقشة مسألة الخروج من أفغانستان مع طالبان.

وفي اجتماع مصغر حول طاولة ضيقة، كان **كياني** يستمع إلينا بانتباه شديد ويسجل ملاحظاته أثناء عرضنا لقائمة القضايا. لن أنسى أبدا ردة فعل **كياني** إثر عرضنا بحماسة شديدة لفكرتنا عن تكوين جيش أفغاني قوامه 400.000 جندي بحلول سنة 2014. كانت إجابته سريعة لا لبس فيها: أرجوكم لا تحاولوا بناء قوة عسكرية أفغانية "ستفشلون في الأمر". ثم تابع قوله "إثر ذلك ستغادرون المنطقة وسينفصل نصف من تلقوا التدريب العسكري عن الجيش وسيلتحقون بالميليشيات الأمر الذي سيخلق متاعب كثيرة ويتسبب في مشاكل شتى لباكستان." حاولنا التمسك برأينا والدفاع عنه إلا أنه لم يقتنع بالأمر. "لا أعتقد أن الكونغرس سيوافق على أداء تسعة مليارات ولار سنويا من أجل بناء هذه القوة العسكرية." كان متأكدا تماما من أن هذه الجيش سينهار وأن فلوله سيلجأ إلى الأعمال الإجرامية لكسب احتياجاته اليومية. سيكون ذلك شبيها إلى حد كبير بما حدث عندما توقف الاتحاد السوفياتي عن صرف الأموال على الجيش الذي بناه ـ فبعد ستة أيام فقط من جفاف منابع التمويل السوفياتي، ذاب الجيش الأفغاني وتشتت وسقطت كابول في أيدي المتمردين. كانت ذكريات مجريات الأحداث في المنطقة دائمة الحضور في أذهان أهاليها بينما كانت ذاكرتنا نحن قاصرة وقصيرة.

كانت نصيحة **كياني** تتمثل فيما يلي: "إذا كنتم عازمون على الخروج (من أفغانستان) فما عليكم إلا أن تفعلوا ذلك الآن ـ وكيفما كان الأمر لا نعتقد أنكم ستمكثون هناك طويلا ـ لكن لا تتسبوا في أضرار إضافية أثناء انسحابكم." ويبدو أن هذا الشعور كان سائدا لدى زعماء المنطقة. فلا أحد كان يصدق حجتنا في إرسال قوات إضافية إلى أفغانستان، ولا أحد كان يصدق حججنا في الخروج من هناك. إذ يبدو أن الكل اعتاد على تيهان أمريكا وفقدانها لوجهة محددة. ومن ثم فإن الأفضل لهؤلاء هو حماية أنفسهم من التغيرات المفاجئة في السياسة الأمريكية وتحولها من اتجاه لآخر.

اشتهر **بيل كلينتون** بوصفه لأمريكا بـ "الأمة التي لا غنى عنها" (the indispensable nation) مما يعني ضمنيا أنها زعيمة العالم وأنها مهيأة على الدوام لحل مشاكله الكبرى والصغرى.[3] كان الأمريكيون يعشقون هذه الصورة التي رُسمت لهم.[4] فلهذا السبب استحضر **أوباما** هذه العبارة الشهيرة لـ **كلينتون** في خطاب حالة الاتحاد، الذي ألقاه في يناير 2012، قائلا للشعب الأمريكي "إن أمريكا لا تزال أمة لا غنى عنها في شئون العالم ـ وما دمت رئيسا فإني عازم على إبقائها على نفس النهج". لكن أمريكا بعد أن انساقت مع الأوربيين كرها لإنهاء الاقتتال والمجازر في ليبيا، وتخلت عن أفغانستان وتركته لمصير مجهول، وقاومت تحمل الزعامة في إنهاء قتل المدنيين في سوريا، وتراجعت عن تعهداتها كمحور رئيسي في المنطقة لصالح آسيا، يصعب الاستمرار في نعتها بالأمة التي لا يمكن للعالم الاستغناء عنها.

يحصل الرئيس الأمريكي في النقاش العمومي حول السياسة الخارجية على تقديرات جد عالية. وذلك بسبب أن الهدف الأساس لسياسته الخارجية لم يرم اتخاذ قرارات استراتيجية بل رمى فقط إلى إرضاء الرأي العام ـ لقد فعل الكثير من

3

للمزيد فيما يخص هذه الفكرة وتاريخ استعمالها من قبل زعماء الحزب الديموقراطي، انظر:
James Mann, The Obamians: The Struggle Inside the White House to Redefine American Power (New York: Viking, 2012), pp. 37-38.

4

هذه الفكرة درست بشكل جيد من قبل روبرت كاغان:
Robert Kagan, The World America Made (New York: Knopf, 2012)

الأشياء التي يرغب الناس فيها، بينما لم يفعل سوى القليل من الأشياء التي يتوجب علينا القيام بها والتي لن تكون شعبية ترضي الناس. وبالنسبة لحلفائنا، فإن مناورتنا التكتيكية لم تضف شيئا يساهم في بناء استراتيجية متماسكة أو رؤية تحقق زعامة عامة للعالم. لقد تلاشت لدى أمريكا تلك الرغبة الجامحة في ريادة العالم وقيادته. وحلت محلها صورة لقوة عظمى تعبت من مشاكل العالم وتخلت بشكل غير خاف عن منطقة من العالم كانت ذات يوم تلتزم بقضاياها بصورة قوية. إن هذا الانطباع لا يخدم مصالح أمريكا على المدى البعيد ولا يدعم الاستقرار في أرجاء العالم.